المجلة السياسية والدولية

اسم المقال: الفلسفة السياسية عند توماس الأكويني (دراسة تحليلية)
اسم الكاتب: م.م. محمد مصطفى أحمد
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/library/2279
تاريخ الاسترداد: 2025/05/07 10:06 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من الصفحة الخاصة بالمجلة السياسية والدولية على موقع المجلات الأكاديمية العلمية العراقية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

الفلسفة السياسية عند توماس الأكويني
(دراسة تحليلية)

م.م. محمد مصطفى أحمد (*)

المقدمة:

يوصف الفكر في العصور الوسطى بأنه كان مقيداً باغلال الكنيسة التي تولت التفكير والتعبير عن آراء المفكرين جميعاً ، فلو استثنينا امثلة قليلة ، ألفينا كل رجال هذه الحقبة ، الذين ساهموا في حياة عصرهم الفكرية ، كانوا من رجال الكنيسة الذين احتكروا الفلسفة والكتب الفلسفية في تلك الحقبة.

ويذهب فريق من الباحثين الى القول بأن الفلاسفة في العصور الوسطى كانو ايقومون بمحاولة التوفيق بين العقل والنقل ، أو بين الفلسفة والدين ، ذلك لأن الفلسفة في الغالب تنتمي الى مجال البرهان و المنطق ، في حين ان الدين ينتمي الى مجال الوحي والكشف ، فهما نقيضان لا يجتمعان .

ومن أبرز الفلاسفة الذين قاموا بتلك المحاولة توماس الأكويني الذي قدم فلسفته على أساس الربط بين العقل و الايمان و الفضائل الاخلاقية ، وعلى هذا الأساس بنى نظريته عن السلطة السياسية ونظام الحكم ، والعلاقة بين الحكام والمحكومين .

عليه فان اشكالية هذا البحث تقوم على بعض التساؤلات ، أهمها : ماهي اهم مميزات الفلسفة السياسية في العصر الوسيط ؟ وكيف يتم الربط بين العقل والإيمان في فسلفة الأكويني ؟ وما هي نظريته السياسية المتستنبطة من فلسفته اللاهوتية ؟

عليه يقوم هذا البحث على فرضية مفادها : أن فلسفة الأكويني السياسية لم تكن إلى حد كبير رهينة نظرة حقبته الزمنية، بل حاول أن يعطي دوراً بارزاً وأهمية كبيرة للعقل ، وحاول أن يوفق بينه وبين الإيمان وقدم الحجج الفلسفية على ذلك ، فضلاً

(*) كلية القانون والسياسة / جامعة السليمانية

عن تقديمه عرضاً لنظريته السياسية المتأثرة بالأرسطوية و ماهيتها، و التي اعتبرها نتاج الطبيعة الإجتماعية للإنسان وليس نتاج شئ آخر.

من هنا قمنا بتقسيم موضوع البحث على مبحثين:

المبحث الأول: وهو بعنوان سيرة الأكويني الذاتية و فلسفته عن العقل والإيمان، و قسمناه على ثلاثة مطالب: المطلب الأول: و يتضمن الفلسفة السياسية في العصر الوسيط ، والمطلب الثاني وخصصناه لسيرته الذاتية ، والمطلب الثالث وناقشنا فيه فلسفته عن العقل والإيمان .

أما المبحث الثاني: فهو بعنوان النظرية السياسية لتوماس الأكويني ، وتم تقسيمه على ثلاثة مطالب أيضاً: بحثنا في الأول موضوع الدولة والمجتمع ، وفي الثاني الفضيلة الأخلاقية و القانون ، وفي الثالث السلطة السياسية ونظام الحكم ، و في الأخير ذكرنا الخاتمة، وملخص البحث، وقائمة بالمصادر والمراجع المستخدمة في البحث.

المبحث الأول / سيرته الذاتية و فلسفته عن العقل والإيمان:

هناك حقبة زمنية في تأريخ البشرية و تأريخ الفكر السياسي يقال عنها بأنها حقبة قل فيها إبداع الفلاسفة والمفكرين، وهي فترة غياب السلطة المركزية (غياب الدولة) في أوروبا ، وتسمى هذه الحقبة بالعصر الوسيط ، والتي اصطبغت الفلسفة السياسية فيها بطابع ديني، و برود العلاقة بين السلطة الزمنية و السلطة الدينية . من هذا المنطلق نقسم هذا المبحث على ثلاثة مطالب: نخصص المطلب الأول لشرح الفلسفة السياسية في العصر الوسيط ، والمطلب الثاني ونخصصه للسيرة الذاتية لتوماسالأكويني ، والمطلب الثالث و نخصصه لبيان فلسفته عن العقل والإيمان.

المطلب الأول : الفلسفة السياسية في العصر الوسيط (المسيحي):

تبدأ العصور الوسطى مع بداية إنهيار الأمبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس الميلادي، وتمتد حتى القرن الخامس عشر مع سقوط الأمبراطورية المسيحية (حكم الكنيسة) وبداية هيمنة العثمانيين الأتراك على السلطة ، ولقد تميز الفكر

المسيحي في تلك الحقبة الوسيطة بالفصل بين السلطة الزمنية للإمبراطور و السلطة الإلهية التي كانت "للبابا".[١]

في هذه الحقبة انشغل الفلاسفة باقامة البناء الكاثوليكي او بإصلاح العيوب التي اعترته بسبب الصراع بين السلطة الدينية والسلطة المدنية ومشكلة تنظيم العلاقة بينهما ، فهي حقبة الصراع بين السلطات من حيث الواقع السياسي ، وهي حقبة تبرير السيادة من حيث التغيير السياسي . ويمكن القول أن هذه الحقبة التي امتدت لعشرة قرون قد شهدت تطورا واضحا سواء فيما يخص تحديد مركز الكنيسة تجاه الدولة أو تحديد موقع الدولة من قبل الكنيسة.[٢]

وكما هو معروف فإن السيد المسيح نادى بالعدالة الإجتماعية ، وامر بالفضائل الأخلاقية ، ويركز في مواعظه على أن للفرد في حياته دورين منفصلين يجب أن يؤديهما وهما: دوره كمواطن في النظام السياسي، وعليه أن يؤديه بنشاط وفاعلية و أن لايكون سلبيا . و دوره الديني الأخلاقي ، و بهذا يصبح الإنسان ذا ولاء مدني للدولة وذا ولاء ديني و أخلاقي لربه وضميره.[٣]

فهناك في العهد الجديد (الانجيل) نصان شهيران ومكملان لبعضهما البعض ، يشيران لأهمية القضايا المستجدة في الفكر السياسي . النص الأول ويوجد في الاناجيل ، والثاني (للقديس بولس)[٤] في الرسالة التي وجهها إلى الرومانيين ، ففي الأناجيل عندما أراد أعداؤه إحراجه أمام السلطات الرومانية ، وسألوه عن إمكانية دفع

---

[١] على عبود المحمداوي ، الفلسفة السياسية ، دار روافد –ناشرون، بيروت، ٢٠١٥، ص ٧٥ .

[٢] غانم محمد صالح ، الفكر السياسي القديم والوسيط، دار الكتب للطباعة، العراق ، ٢٠٠١، ص ١٦٣ .

[٣] فايز صالح ابو جابر ، الفكر السياسي الحديث، دار الجبل، بيروت، ١٩٨٥، ص ٢٣ .

[٤] القديس بولس: بولس الطرسوسي ويعرف أيضاً ببولس الرسول أو القديس بولس،و كان يسمي شاول وهذا هو اسمه العبراني ولد في مدينة طرسوس(في تركيا اليوم) بين سنة (٥–١٠) الميلادية ، هو أحد قادة الجيل المسيحي الأول و يعتبره البعض على أنه ثاني أهم شخصية في تاريخ المسيحية بعد المسيح نفسه. عرف برسول الأمم حيث كان من أبرز من بشر بهذه الديانة في آسيا الصغرى وأوربا، وكان له الكثير من المريدين والخصوم على حد سواء. تربى على روح اليونانية واللغة والقانون الروماني وصرامة المجتمع اليهودي، قام بعدد من الرحلات التبشيرية ، وكتب رسائل عديدة أصبحت جزءاً من الكتاب المقدس، واعدم سنة (٦٥–٦٧ م) . للمزيد انظر : القديس بولس رسول الامم ،متاح على موقع أرثذوكس اونلاين على الانترنت،على الرابط الالكتروني التالي: https://www.orthodoxonline.org في ٢٠١٦/٧/١٠.

الجزية لقيصر ، أدرك السيد المسيح خبثهم و قال لهم : " ايها المراؤن لم تجبرونني ؟ أروني نقد الجزية " ، فأتوا به ، فقال لهم : " لمن هذه الصورة ؟ وهذه الكتابة؟ " قالوا له لقيصر . فقال لهم : " إذاً ردوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله " [٥] .

اذا لن يكون كل شئ لقيصر ، فليس للقيصر أن يطلب كل شيء من الإنسان ، بصفته الوريث للمدينة القديمة التي كانت دولة و كنيسة في آن واحد. إن قيصر ليس الوحيد الذي له السلطة على الإنسان . لقد حلت الثنائية المسيحية محل الأحادية الوثنية ، فالقطعة النقدية المنقوش عليها صورة قيصر تعود لقيصر. أما الله فيجب أن نرد له صورة الله وصبغته الموجودة في الإنسان. وهكذا يضطلع المسيحي بنوعين من الواجبات، تطالب بهما مؤسستان مستقلتان، وتقابلان ثنائية الكائن الإنساني المقسم بين طبيعته المادية وطبيعته الروحية .وفي حالة وقوع التنازع بينهما تكون الأولوية لله ، كما جاء في جواب(القديس بطرس)[٦] : " إن الله أحق من الناس بالطاعة " ، ولكن ليس بمثل هذه البساطة ، .. فالقديس بولس في (رسالته إلى الرومانيين) يرى أن من الضروري العودة لقضية الطاعة ، حيث عمق على طريقته كلمة اليسوع الكبيرة : " ليخضع كل واحد للسلطات المنصبَّة . فإنه لا سلطان إلا من الله ، والسلطات الكائنة إنما رتبها الله . فمن يقاوم السلطان ، فإنه يعاند ترتيب الله ، فإن الحاكم خادم الله ، ويتقلد السيف لينتقم من الذي يفعل الشر ، لذلك يلزم الخضوع له ، ليس خوفا من الغضب فقط ، بل من أجل الضمير ، ومن أجل ذلك توفون الجزية ، لأن الحكام هم خدام الله الذين همهم المواظبة على الخدمة . فأدوا إذا للجميع حقوقهم : الجزية لمن

---

[٥] نقلاً عن : جان جاك شوفاليه ، تاريخ الفكر السياسي ، ترجمة محمد عرب صاحيلا ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٤٣ –١٤٣.

[٦] القديس بطرس : هو سمعان بن يونا وهو اخو اندراوس،وليد في بيت صيدا في جليل وكانت مهنته صيد السمك، وجاء به أخوه الى اليسوع وظل معه الى النهاية . وكان أول من رافق المسيح و كان أميناً لأسراره ، ورافقه في جميع مراحل حياته، وبعد ذلك بدأ بالتبشير ،وطاف سواحل فلسطين ولبنان ، وذهب إلى روما بالإتفاق مع بولس و قبض عليه نيرون وسجنه ، وأعدم معه سنة (٦٥–٦٧ م). انظر: القديس بطرس، متاح على موقع ارسالية مار نرساي الكلدانية الكاثوليكية على الانترنت، على الرابط الالكتروني التالي: http://www.marnarsay.com/Santas/Botrous%20Alrasol.htm في ٢٠١٦/٧/١٠.

له الجزية ، والجباية لمن له الجباية ، والمهابة لمن له المهابة ، والكرامة لمن له الكرامة ".[٧]

لقد أصبحت هذه الكلمات نظرية مسيحية بديهية ، وأضحت الفضيلة المسيحية هي إلتزام الطاعة المدنية التيتعتبر فرضاً يأمر الله به، وهنا اكتسبت التعاليم المسيحية طابعا جديدا مغايرا للنظرية الدستورية الرومانية التي ترى أن سلطة الحاكم مستمدة من الشعب.[٨]

واذا كان التمييز بين الجوانب الروحية والجوانب الدنيوية و عالم الروح وعالم الوجود هو أحد دعامات الفكر المسيحي الأساسية ، فإن هذه الدعامة اصطدمت مع مشكلة العلاقة بين المؤسسات الدينية والمؤسسات السياسية للمسيحي، حيث أن الإلتزام بمعتقداته الدينية الجديدة يمكن أن يجعل منه خائناً لواجباته من وجهة نظر الامبراطورية القديمة، ذلك لأن الحكم الوثني تجمع بيده السلطتين الزمنية والدينية ، في حين ارتفعت الواجبات الدينية في نظر المسيحي إلى أقصى إلتزام مباشر نحو الله ، وطبقا لذلك لا يستطيع أن يفسرأو يبرر مسألة اقحام السلطة الزمنية لنفسها في هذه العلاقة بين الإنسان وخالقه، فالمراسيم التي يجب على الرعايا أن يقوموا بها تجاه الامبراطور تتضمن فروض التمجيد الديني التي تتنافى مع المباديء المسيحية، ومن ثم كان على المسيحي ان يرفض ذلك ، وهكذا أثارت المسيحية قضية الكنيسة والدولة (الولاء المجزء) بما تضمنته من تعدد الولاء واختلاف صوره .[٩]

هذا الأمر أدى إلى أن تكون الكنيسة قوية في فلسفتها وفي تنظيماتها حتى قبل أن تكتسب وضعا قانونيا مستقرا ، وعندما استقر وضعها وضحت الحاجة الى التمسك بتأكيد استقلالها في المسائل الروحية ، كما أن رهبانها لم يتصوروا إمكانية استمرار وضع لاتتصل فيه الكنيسة بالدولة ، لحاجة كل منهما للآخر ، حاجة الروح والجسد الى الإختلاط بالحياة البشرية ، فتعاون الكنيسة مع الدولة أمر مفروغ منه ،

---

[٧] نقلاً عن : جان جاك شوفاليه ، مصدر سابق ، ص ١٤٤.

[٨] غانم محمد صالح ، مصدر سابق، ص ١٦٧ .

[٩] جورج سباين ، تطور الفكر السياسي ، الكتاب الثاني ، ترجمة حسن جلال العروسي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦٩ ، ص ٢٧٠ – ١٦٩ .

لأنهما هيئتان وجدتا بأمر من الله لحكم البشر. ولهذا السبب أعطيت الكنيسة مركزاً قانونياً خاصاً بها لقدرتها على تأييد الدولة ، وما لهذا التأييد من أثر سياسي على التزام رعايا الكنيسة بأوامر الدولة .[١٠]

لقد نظرت المسيحية عند ظهورها إلى الفلسفة اليونانية نظرة ملؤها الشك وعدم الثقة ، لأنها اعتبرت هذه الفلسفة مظهرا من مظاهر التفكير الوثني و إذا كانت المسيحية اعتقدت أن هذا النوع من التفكير من شأنه أن يعمي بصيرة الإنسان ، فإنها تمسكت بأن المعرفة الحقيقية ينبغي ألا تستمد إلا من الكتاب المقدس وآراء آباء الكنيسة . ولكن هذا الموقف من الفلسفة القديمة كان لايمكن أن يدوم ويستمر ، بعد أن وجدت الكنيسة نفسها في حاجة إلى دعائم فلسفية تدافع بها عن كيانها ضد خصومها ، فاعتمدوا على آراء أفلاطون وأرسطو لإثبات آرائهم بوجود الله [١١]، ولابد من الإشارة إلى أن مؤلفات أرسطو كانت توهم بالكفر أول ماجاءتإلى أوروبا المسيحية عن طريق المصادر العربية واليهودية ، وكانت الكنيسة تميل أول الأمر إلى تحريمها ، وفعلا قامت بذلك، ولكن ذلك التحريم لم يكن فعالا ، وبذلك عمدت الكنيسة بحكمة إلى التجديد بدلا من منعها ، وسرعان ما تم قبول مؤلفات أرسطو وأصبحت حجر الزاوية في الفلسفة الرومانية الكاثوليكية ، وما كانوا يخشونه ويعتبرونه بدعة ضد المسيحية، إنقلب الى شيء جديد يرجى أن يكون مذهباً دائماً لفلسفة تصطبغ بصبغة المسيحية. وقد قام بهذا الأمر معلمون من جماعات الرهبان وبخاصة (آلبرت

[١٠] غانم محمد صالح ، مصدر سابق، ص ١٦٨-١٦٩ .

[١١] محمد الخطيب ، حضارة اوروبا في العصور الوسطى ، دار علاء الدين ، ديمشق، ٢٠٠٦، ص١٧٩ .

الكبير)[١٢] وتلميذه الشهير (توماس الأكويني) وهما من جماعة الرهبان (الدومنيكان)[١٣]،وتم تسمية فلسفته الخاصة (بالتوماوية)[١٤]نسبة لإسمه.[١٥]

و بإختصار فإن التوماوية إذا ما نظر اليها من منظور الفكر الفلسفي ، فإنها لن تكون شيئاً آخر سوى مذهب أرسطو مصححاً بطريقة عقلية ، ومكتملاً بطريقة حكيمة. ولم تكن ثمة حاجة بالاكويني الى تعميد مذهب أرسطو لكي يجعله حقيقياً اكثر مما كان ينبغي عليه، بل كان من الأفضل أن يعمد ارسطو نفسه لكي يناقشه في الفلسفة ، فالمناقشات الفلسفية تدور بين رجل و رجل آخر ، لا بين رجل دنيا و رجل دين، فالطابع الديني أو مسيحي لا دخل له بمثل هذه المناقشات.[١٦] وهذا ما سنحاول بيانه من خلال صفحات هذا البحث .

المطلب الثاني : سيرة حياته:

يُعَد توماس الأكويني من أكبر فلاسفة العصور الوسطى المسيحية ، و لايزال تاثيره عظيما في الكنيسة الكاثوليكية و في الفكر المسيحي عامة . ولد توماس بقصر

---

[١٢] البرت الكبير : فيلسوف لاهوتي كبير ، كان استاذا لتوماالأكويني، قام بالتدريس في دير الدومنيكان و مدارس دينية عدة في المانيا منذ ١٢٣٣، تقلد مناصب اكاديمية ودينية عدة ، و شارك مجاميع دومنيكية عدة ، وكلفه البابا بمهام عدة منها الدعوة إلى الحروب الصليبية،وفي سنة ١٩٣١ منحه البابا بيوس الحادي عشر لقب قديس وعالم من علماء الكنيسة، وفي١٩٤١ ومنحه البابا بيوس الثاني عشر لقب "حامي العلماء".للمزيد انظر: د.عبدالرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ج١، ١٩٨٤، ص٢١٧.

[١٣] الدومنيكان و الفرنسيسكان: الدومنيكان جاءت على اسم دومنيك(١١٧٠-١٢٢١) ، و الفرانسيسكان من اسم القديس فرانسيس الاسيزي(١١٨٢-١٢٢٦) ، في قرن ١٣ ظهر الدومينيكان و الفرنسيسكان ،وكان لهم أثر واضح في الحياة العقلية في أوروبا، ونهضوا بالمدارس والجامعات واهتموا بالفلسفة الأرسطية ، وفي ظل عقليتهم ومدارسهمأ صبحت الرهبنة عالمية ، حيث لا يرتبط الراهب بدير معين.أنظر دومنيك(١١٧٠-١٢٢١) ، القديس فرانسيس الاسيزي(١١٨٢-١٢٢٦) متاح على موقع ST-TAKLAعلى الانترنت ، على الرابط الالكتروني التالي: www.st-takla.org في ٢٠١٦/٧/١١

[١٤] التوماوية : مذهب القديس "توما الأكويني" ، وهو يأخذ بواقعية أرسطو التي ترد المعرفة أساسا الى الإحساس والعلم الخارجي، ويحاول التوفيق بين العقل والإيمان، بين الأرسطية والمسيحية، تأثر بالفلسفة الإسلامية وإن عارضها في بعض الجوانب، للمزيد انظر : مجمع اللغة العربية ، المعجم الفلسفي ، تصدير د. ابراهيم مدكور، الهيئة العامة لشؤن المطابع الاميرية، القاهرة ، ١٩٨٣، ص ٥٧.

[١٥] المشكلة التي واجهت الفلسفة المسيحية هي (الشك في صحة اتحاد العقل والإيمان) وهوما حاول الأكويني أن يثبته استناداً لفلسفة أرسطو. انظر: جورج سباين، مصدر سابق، ص ٣٥٠ .

[١٦] المصدر نفسه ، ص ٣٣ – ٣٤ .

روكاسكا (Roccasecca) بالقرب من آكوينالتي تقع في إقليم نابولي و من هنا جاءت تسميته بالأكويني، وكان آنذاك داخلاً فيما كان يعرف بمملكة نابولي و صقلية ، و أبوه ينحدر من أسرة نبيلة ، بدأ توماس دراسته في دير (مونتي كاسيني) الشهير وتابعها في جامعة نابولي ، حيث درس الفنون الحرة السبعة (النحو ، المنطق ، الخطابة ، الهندسة ، الحساب ، الفلك ، الموسيقى)[١٧].

وفي سنة (١٢٤٤) دخل الطريقة الدومنيكية التي كانت قد تاسست في نابولي سنة ١٢٣١ ، ولكن عائلته أعادته الى قصر روكاسكا حيث ظل يدرس طوال عامين الكتب المقدسة و كتاب الأقوال لبطرس اللومباردي[١٨] ، ومنطق أرسطو . وفي سنة ١٢٤٦ إسترد حريته والتحق بالرهبنة مجدداً ،فغادر إيطاليا و أقام فترة قصيرة في باريس ، ومن ثم ذهب إلى كولن (كولونيا) في ألمانيا وشهد وضع الحجر الأساس لكاتدرائية كولن عام ١٤٤٨ ، وهناك تابع دراسته الفلسفية واللاهوتية و تعلم على يد البرت الكبير[١٩] ثم عاد إلى باريس لمزيد من الدراسة ، وظل يحاضر بها إلى أن حصل على الدكتوراه في اللاهوت عام ١٢٥٦ ، وعارض بعض أساتذة الجامعة تعيينه أستاذاً متفرعا لصغر سنه ، ولكن البابا أعفاه من شرط السن ، وظل بها حتى عاد إلى روما عام ١٢٥٩ محاضراً ودارساً و إداريا ، إلا أنه عاد إلى باريس استاذاً بجامعتها لمدة أربع سنوات اخرى ، ودخل في ثلاث صراعات ، أولاً مع (الأوغسطينيين)[٢٠] ، ويمثلهم تقريبا أساتذة اللاهوت بالجامعة، بسبب اتجاهاتها الأرسطوية ، ومع الأرسطويين ثانيا و

---

[١٧] عبدالرحمن البدوى ، موسوعة الفلسفة ، ج١، منشورات ذوى القربى، ايران، ٢٠٠٦، ص٤٢٦.

[١٨] بطرس اللومباردي: لاهوتي إيطالي الأصل كتب باللاتينية، ولد في اللومباردي من أسرة فقيرة جداً، ذهب إلى فرنسا في عام ١١٣٦ لإستكمال دراسته، وذاع شهرته في ألمانيا و إيطاليا و باقي أوروبا، رقي عام ١١٥٩ إلى مرتبة أسقف باريس، له مؤلفات عدة. للمزيد أنظر : جورج طرابيشي ، معجم الفلاسفة (الفلاسفة – المناطقة– المتكلمون اللاهوتيون –المتصوفون)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت،ط٣، ٢٠٠٦، ص١٨٢.

[١٩] عبدالرحمن البدوى ، مصدر سابق ،ص٤٢٧ .

[٢٠] الأوغسطينية: جاءت من تسمية القديس أوغسطين ، مذهب القديس أوغسطين ، الذي يقول " ليس ثمة معرفة ولا حقيقة حيث لا إيمان" ، ويقوم بين التوفيق بين المسيحية والأفلاطونية ، إمتد تأثير مذهبه إلى التأريخ الحديث ، ولا يزال واسع الإنتشار بين الكاثوليك والبروتستانتيين. للمزيد أنظر : مجمع اللغة العربية ، مصدر سابق، ص ٢٧.

(الرشديين اللاتين)[٢١]، لتاويلاتهم لأرسطو ، وثالثاً مع المعارضين لحق الدومنيكان و الفرنسيسكان في التدريس بالجامعة ، وفي تلك الفترة دَون الكثير من مؤلفاته ، وتبلغ مصنفاته ثمانية وتسعين كتاباً ، وهي تمثل ثمرة الدروس التي ألقاها في الجامعات و المعاهد، و المناقشات التي أجراها مع نظرائه مثل (المسائل المتنازع عليها) ، أو وليدة تأليف حر مثل (الخصة ضد الكفار) و (خلاصة اللاهوت)، أو استجابة لإستفسارات مثل معظم رسائله. وهذه الكتب بعضها بخطه و بعضها الآخر أملاه ، وبعضها نقلها عنه تلاميذه و زملائه ، وبالإضافة إلى تلك الكتب قدم شروحاًعلى الكتاب المقدس وعلى كتاب (الأقوال) لبطرس اللومباردي .والتي تتوزع في مجموعات ست هي[٢٢]: أولاً/ المجموعات اللاهوتية ، ثانياً/ الشروح على الكتابات الفلسفية ، ثالثاً / الكتب اللاهوتية ، رابعاً / المسائل المتنازع عليها ، خامساً / السؤال والجواب ، سادساً / الكتابات الفلسفية. و يصل بعض هذه المؤلفات إلى ثلاثة آلاف صحيفة . و يتوقع أنه كان له عدد من المساعدين لمساعدته ، وخاصة أن خطه لم يكن مقروءاً. وفي سنة ١٢٧٢ استدعي إلى روما ليدرس نحوعام بجامعة نابولي ، وتجهز للسفر الى ليون بفرنسا عام ١٢٧٤ ، ولكن المرض أقعده ، ثم توفى في مارس من ذلك العام[٢٣].

وفي عام ١٣١٨ أعلن البابا أن التوماوية منحة إلهية ، وان الأكويني قديس ، و وجد الكاثوليك في التوماوية أسلحة فلسفية يحاربون بها الفلسفات الحديثة الإلحادية و اللاأدرية ، وخاصة كتابي الأكويني الكبيرين " الخلاصة في الرد على الأمم " و "

---

[٢١] الرشديين اللاتين : شكل أتباع ابن رشد في أوربا تياراً فلسفياً قوياً في القرون الوسطى، بداية من القرن ١٣ وحتى ١٦ ، وقد شغلوا الفكر واللاهوت الغربي وقد أطلق على هذا التيار اسم الرشدية، للمزيد انظر : د. حسن حنفي ، حوار الأجيال،دار قباء للطباعة والنشر،مصر، ١٩٩٨، ص٥١.

[٢٢] نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط ، ترجمة حسن حنفي ، دار التنوير ، بيروت ،١٩٨١،ص ٢١٢–٢١٥ ، و عبدالرحمن بدوي ، مصدر سابق، ص ٤٢٨.

[٢٣] عبدالمنعم الحفني ، موسوعة الفلسفة والفلاسفة ، ج١ ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٩٩، ص ١٧٦ .

الخلاصة اللاهوتية" . وشروحه على "الاسماء الإلهية " لـ(ديونيسيوس المجهول)[٢٤] ، وشروحه على كتب أرسطو . ويقال أن الأكوينيطلب من زميله الراهب (وليام الموربيكي)[٢٥] مراجعة ترجمات أرسطو المتداولة ، وأن يزوده بترجمات جديدة لها متميزة بإضافات كبار مفكري الاسلام كـ(إبن سينا)[٢٦] و (ابن رشد)[٢٧].

وفي عام ١٨٧٩ إحتفل البابا ليو الثالث عشر بإحياء الفلسفة التوماوية ، التي ينبغي أن تستخلص من بين إهتمامات الأكويني الواسعة و التيعبر عنها في بناءه اللاهوتي. والتي تعتبر فلسفة فكرية هامة لا تقتصر على حدود الكهنوت الضيقة، أما إلى أي حد يمكن تقدير الحاصل الفلسفي الذي انتهى اليه دون إستشهاد بالمسيحية ، فهذا الأمر يثير شيئاً من الجدل ، فأما الدومنيكان الذين يمكن إعتبارهم ورثته الشرعيين فيؤكدون على أن هذه الفلسفة منسقة من الناحية العقلية وكافية بذاتها .بالإضافة إلى أنها ليست رهينة نظرة العصور الوسطى إلى العالم . وإن كانت قد

---

[٢٤] ديونيسيوس الاريوباجي: شخصية غامضة، لا تزال هويته الحقيقية مجهولة، كتب مابين(٤٨٢-٥٣٠) ، صاحب كتابات ورسائل يبجلها العصر الوسيط تبجيلا يكاد يعادل تبجيله للكتاب المقدس، كان تلميذا للقديس بولس واهتدى الى المسيحية على يده . للمزيد انظر : جورج طرابيشي، مصدر سابق، ص٣١٠.

[٢٥] وليام الموربيكي(١٢١٥-١٢٨٦) كبير أساقفة كورنثالفلمنكي ومترجم نصوص يونانية الى اللاتينية، ومترجم ماوراء الطبيعة لأرسطو، للمزيد انظر : د.سامي السهم، التصوف العقلي في اليهودية والمسيحية والإسلام، داركتاب المصري، القاهرة، ٢٠١٤، ص ٢٥٢.

[٢٦] إبن سينا: أبوعلي الحسين بن عبدالله بن سينا(٩٨٠-١٠٣٧) ، أثار إعجاب الناس من حوله بحفظه للقرآن والأدب العربي في العاشرة من عمره ، درس مباديء الفلسفة اليونانية والهندسة و الحساب، وتعلم على يد فلاسفة و معلمين عدة ، وعمل كطبيب في السادسة عشرة من عمره ، ذاع صيته في صنعته هذه ، و عند بلوغة ١٨ من عمره بات مضطلعاً بالعلوم كافة، ولما بلغ إبن سينا العشرين من العمر كتب رسائل في بعض المسائل الفلسفية ، ألف إبن سينا عدداً كبيراً من التصانيف، التي لايزال الكثير منه مخطوطاً، فقد تضمن ثبت مؤلفاتهالذي نشره في القاهرة الأب القنواتي سنة ١٩٥٠ ٢٧٦ عنواناً، وهذا الفيلسوف الكبير لم يحظ على الدوام بمن يفهمه. للمزيد انظر : جورج طرابيشي، مصدر سابق، ص ٢٥-٣٠.

[٢٧] ابن رشد (١١٢٦-١١٩٨) ابو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد فيلسوف عربي، ولد في قرطبة ،كان أبوه وجده قاضيين في قرطبة، درس الفقه القرآني والكلام والفلسفة والطب والرياضيات، فطلب منه الخليفة أن يقوم بتحليل مؤلفات أرسطو ، وصار طبيب الخليفة الخاص ، و وفر له الخليفة أسباب الحماية حتى وقع تحت ضغط العناصر السلفية المناوئة لفلسفته، وأمر بحبس ابن رشد و لم يمض كثيراً في السجن وعاش بعد ذلك تحت المراقبة في مراكش حتى مماته. أنكر إبن رشد أن يكون مؤسس مذاهب فلسفية، فقد كان لايطمح إلى أكثر من دور أن يكون شارح أرسطو. للمزيد انظر : المصدر نفسه، ص٢٣-٢٥.

تطبعت بطابع الحقبة التي كانت فيها كتابات أرسطو تلج أوروبا الغربية عن طريق الحدود الإسبانية مع الإسلام في بادئ الأمر ثم عن طريق بيزنطة فيما بعد .[٢٨]

المطلب الثالث: العقل والإيمان:

لقد امتازت فلسفة الأكويني بالتفرقة الواضحة بين العلم واللاهوت (العقل والإيمان) ، فقال إن الفلسفة لا يمكن أن تقدم أدلة قاطعة لإثبات مباديء المسيحية لأن العقل البشري يتقبل هذه المبائ، ولإعتقاده فقط انها من عندالله ، وأقصى ما يمكن أن تقوم به الفلسفة هو تفنيد مزاعم ضعاف العقيدة والمتشككين في الدين ، على أن ثمة عنصراً مشتركاً بين الفلسفة واللاهوت وهو أننا لا ننتظر من العالم أن يؤمن بعقائد اللاهوت التي تسندها السلطة المقدسة دون أن تقيم الأدلة الفلسفية على وجود الله وماهيته وقدرته. وهنا يسوق القديس توما خمسة أدلة على وجود الله ، مستمداً منطق تفكيره من فلسفة أرسطو بوجه خاص.[٢٩]

وأول هذه الأدلة فكرة المحرك الذي لا يتحرك ، فكل ما يتحرك يحركه شيء سواه، فإننا سنصل إلى شيء يحرك بقية الأشياء دون أن يتحرك هو ، وهذا الشيء هو الله.

الدليل الثاني يقوم على أساس العلة العلة الأولى ، إذ لا يمكن أن تكون جميع الموجودات فاعلة لنفسها ، بل لا بد أن تكون لكل شيء علة أوجدته ، إذن لابد من وجود علة خالقة أولى وهي الله.

أما الدليل الثالث فهو ضرورة وجود مصدر أساس لكل الموجودات وهو الله ، (قد يكون هذا الدليل نفسه السابق له) .

ثم يأتي الدليل الرابع و يعتمدعلى تفاوت الموجودات في الصفات والكمالات، والتفاوت لا يأتي إلا نتيجة للإضافة إلى ما هو غاية في صفة معينة ، وعلى ذلك لابد من وجود شيء تام الكمال هو غاية الكمالات التي تصدر كلها عنه ، وهذا الشيء هو الله.

---

[٢٨] الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ترجمة فؤاد كامل وآخرون ، دار القلم، بيروت، ١٩٨٣ ، ص ٧١ .

[٢٩] محمد خطيب، مصدر سابق، ص ١٩٧ .

وأخيرا يعتمد الدليل الخامس على أن كل الموجودات – حتىالتي لا حياة فيها– تعمل لتحقيق غاية معينة، مما يدل على أنها لا تعمل عرضا بل قصداً مدفوعة بقوة كائن سواها خارج عنها، وهذه القوة هي قوة الله.[٣٠]

ومن الواضح أن الأدلة السابقة تقوم على أساس الوصول إلى علة الموجودات الطبيعية ، لأن الاكويني يرى أن الإيمان يتوقف على معرفة الطبيعة(اللاهوت الطبيعي) ، وبعد ذلك يتعرض لماهية الله تعالى فيرى أنه جوهر نفسه لأنه كائن غير مركب لا فرق فيه بين جوهر و وجود، وهو كامل من جميع النواحي ، والاشياء التي تشبهه في بعض النواحي لا تشبهه في البعض الآخر ، وهو إرادته و إرادته هي جوهره، ويمتازالله بالقدرة والعناية والعقل والفضائل التأملية والعملية جميعاً.[٣١]

ثم يتناول الأكويني مشكلة الخلق والعلاقة بين الخالق والمخلوق ، فيقول إن الموجودات مخلوقة لأن الله خلق العالم من العدم ، وأرقى المخلوقات هي الملائكة،وهي مخلوقات روحية كثيرة العدد (يبلغون كمالهم العقلي بفيض إلهي) ،أما الإنسان فيلي الملائكة في المرتبة ، والإنسان مؤلف من روح وجسد ، والروح هي النفس الخالدة التي تدرك الأشياء بقوة العقل ، والعقل جزء من روح كل فرد من الأفراد.[٣٢] وهنا يعرض الأكويني مشكلة الكليات عندما يبحث في العقل ، فيتفق مع أرسطو في أن الكليات لا وجود لها خارج الروح ، ولكن العقل حين يعقل الكليات فهو يعقل اشياء موجودة خارج الروح.[٣٣]

ولابد من الاشارة هنا إلى وجود تعارض في نظريته عن العلاقة بين العقل والايمان ونظريته في الوجود ، فهناك انقطاع تام بين نمط المعرفة بالعقل ونمط المعرفة بالوحي : فالنمط الأول غير مؤهل ليرقى بنا الى النمط الثاني. و بالمقابل إن في الوجود بالذات

---

[٣٠] لمزيد من التفاصيل عن براهين وجود الله ينظر : اميل برهييه، تأريخ الفلسفة (العصر الوسيط والنهضة)، ترجمة جورج طربيشي ، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٧٧ .

[٣١] لمزيد من التفاصيل ينظر : نماذج من الفلسفة في العصر الوسيط، مصدر سابق، ص ٢٤٥ وما بعدها.

[٣٢] محمد الخطيب ، مصدر سابق، ص ١٩٨.

[٣٣] برتراند رسل، تأريخ الفلسفة الغربية (الكتاب الثاني)–الفلسفة الكاثوليكية، ترجمة زكي نجيب محمد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ٢٠١٠، ص ٢٣٧ .

في الواقع ، إتصالاً تاما بحيث ينتمى أي انقطاع وحتى اي انفصال على صعيد الواقع بين المظاهر التي يكشفها العقل من هذا الواقع ، وبين الوجود الذي نعرفه بالوحي، أو الوجود الذي يكون بلوغنا اليه بمعرفة الملائكة وبالمعاينة الإلهية .وأنه مادامت المعرفة تبلغ دفعة واحدة الى الوجود بالذات ، فمن المحال ألا يكون ثمة واصل مشترك بين حقائق العقل وحقائق الإيمان ، أي تكون ثمة وجود لحقائق (مثل وجود الله) قابلة لان يبرهن عليها عقلياً ولأن الوحي جاء بها على حد سواء.[٣٤]

كان الاكويني يعتقد أن وجود الله ليس واضحاً بذاته ، ويعارض اولئك الذين يذهبون الى أن وجود الله فطري في الانسان ، إذ يعتقد أنها فكرة باطلة ، فليس وجود الله فطرياً وإنما المبادئ العقلية هي التي ترشدناإلى وجوده.[٣٥]

وبذلك يستنتج الاكويني وجود الله بحجج ثلاث وخمسة أدلة، أما الأدلة فقد سبق ذكرها، وأما الحجج الثلاث فهي:

الأولى:أن الإنسان يتشوق إلى السعادة بطبعه ، والله سعادته، وما يكون التشوق له طبيعياً ، لابد أن تكون معرفته طبيعية.

والثانية: حُجة "انسلم"[٣٦] : أن الانسان لا يتصور في عقله من هو أعظم من الله، وما يوجد في الواقع أعظم مما يوجد في العقل.

والحجة الثالثة: حُجة "اوغسطين" : وهي أن وجود الله ظاهر بذاته ، فمن ينظر إلى السماء والارض بنظاميهما و إبداعيهما لايمكن أن ينكر وجود الله .[٣٧].

---

[٣٤] اميل بر هيية، مصدر سابق، ص ١٧٥.

[٣٥] انتين غلسون ، الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط ، ترجمة امام عبدالفتاح ، التنوير للطباعة والنشر ، بيروت، ٢٠٠٩ ، ص ١٢١ .

[٣٦] أنسلم الكنتربري (١٠٣٣-١١٠٩): فيلسوف لاهوتي وقديس ، دخل الدير وهو في السادسة العشرين من عمره،وبين جدرانه تعبد، وعلم ، وكتب . له مؤلفات عدة ، وطوبه البابا الأسكندر السادس في عام ١٤٩٦ قديساً، و منحه البابا كليمنضوس السادس في عام ١٧٢٠ لقب معلم الكنيسة. وقال عنه هيغل: "كان أنسلم في حجته المشهورة على وجود الله ، أول من أظهر الفكر في تعارضه مع الوجود والسعي الى اثبات هويته ". للمزيد انظر : جورج طرابيشي ، مصدر سابق، ص١٠٢-١٠٣.

[٣٧] عبد المنعم الحفني ، مصدر سابق، ص ١٧٩ .

أما الادلة والبراهين التي ذكرناها سابقاً ، فقد أخذها الأكويني من أرسطو وفارابي و ابن سينا و البرت الكبير وأخذ منهم، وهذه البراهين هي : البرهان بالحركة ، و البرهان بالعلة الفاعلة ، والبرهان بالواجب ، والبرهان بالتفاوت في مراتب الوجود ، وأخيراً البرهان بالعلة الغائبة.[٣٨].

وبعد اثباته لوجود الله ، يحاول الأكويني معرفة صفاته ، وذلك بطريقتين:

الأولى: طريق السلب : وذلك ببيان ما لايمكن أن يوصف به . فننفي عنه أنه مركب، ونقول انه بسيط ، وننفي عنه أنه ناقص ، ونقول عنه أنه هو الكمال . و وصفنا الله بأنه كامل معناه أنه الخير . و وصفه بالكمال و الخير يعني في الوقت نفسه وصفه بأنه لا متناه. و معنى كونه لا نهائياً يعني أنه لايمكن تصور شيء ليس الله موجوداً فيه . فالله إذن في كل مكان ، أي أنه وجود كل ماهو موجود.[٣٩]

والثانية: معرفة اللة بقياس النظير : فالإنسان يطمح دائما الى وصف الله بصفات إيجابية . ولا سبيل الى ذلك بإدراك مباشر ، بل بقياس النظير . ذلك أن المخلوقات هي آثار الله ، فلا بدأن نجد فيها آثار صفات الله الايجابية ، أو الثبوتية ، مع مراعاة الفارق الهائل بين الفاني والباقي ، بين المتناهي و اللامتناهي ، بين العلة والمعلول. ويكون ذلك بالنظر في كمالات المخلوقات ، و وصف الله بهذه الكمالات المرفوعة إلى أعلى درجة ، فنقول الله خير ، حق ، عدل ، قادر ، ... الخ . لأن أسماء هذه الكمالات تليق بالذات الإلهية . وعلينا أن نرعى دائماً أن هذه الصفات لها معنى بالنسبة الى الله غير معناها بالنسبة الى مخلوقاته. ومن بين هذه الكمالات المشتركة يتناول الاكويني بالتفصيل ثلاثة: وهي تعد أكبر الكمالات وهي : العلم ، الإرادة ، الحياة.[٤٠]

---

[٣٨] عبدالرحمن بدوي، مصدر سابق، ص ٤٣٠.

[٣٩] لمزيد من التفاصيل ينظر : انتين غلسون ، مصدر سابق، ص ١٣٧ وما بعدها

[٤٠] عبدالرحمن بدوي ، مصدر سابق ، ص ٤٣٠-٤٣١.

ويعد الأكويني من أتباع الفلسفة (السكولائية) ، واقترن الفكر المدرس بارسطو، ولكن الاكوينيأفاض في شرحه، و التعليق عليه . وبيان النقاط الجوهرية فيه، وهي[٤١]:

١- من الممكن الوفاق والتناسق بين العقل والطريقة العلمية وبين الدين والإيمان ، فهذه الأشياء ليست متعارضة مع بعضها البعض بل متممة لبعضها البعض .

٢- إن وجود الله أمر منطقي و علمي، ولا يستند الاعتراف به على الإيمان فقط . وتسمى هذه الحجة بالحجة الأنطولوجية .

٣- من الممكن التوصل لمعرفة الله والحقيقة بواسطة الدراسة والبحث ومراجعة المصادر الموثوق بها . وليس فقط عن طريق قراءة كتب الدين .

وبالنظر إلى فلسفة الأكويني نجد مجموعة من النتائج المدهشة والضرورية في آن واحد ، نذكر أولاً و قبل كل شيء تلك الاحتجاجات القوية التي أثارها الأوغسطينيون في جميع العصور ضد المحاولات التي يقوم بها التوماويون الذين يريدون أن يجعلوا المسيحية (وثنية) كما يقولون ؛ لأنه اراد أن يبدأ من العقل الى الايمان ، وذلك عكس المنهج الحقيقي الذي ينبغي أن تسلكه الفلسفة المسيحية في نظرهم. وإذا كان بعضالتوماوييناالمحدثيين ينكرون الأوغسطينية كفلسفة ، فإن الأوغسطينيين في العصور الوسطى أنكروا سلفاً أن تكون التوماوية أمينة ومخلصة للتراث المسيحي ، و بينوا أن أخطائها تعود إلى مشكلة أساسية هي : العلاقة بين العقل والإيمان ، ورفض متابعة القديس أوغسطين ، الذي يعترف من جانبه بأن الايمان هو الذي يرشده ، وفضلوا بدلاً منه مبادئ أحد الفلاسفة الوثنيين (يقصدون أرسطو) أو شراحه العرب (يقصدون ابن رشد) ، لذا أصبحوا غير قادرين على التمييز بين الحق والباطل ، أو بين الصواب والخطأ.

لكن كما أن من الأوغسطينيين من ينظر الى التوماوية على أنها زائفة ، لأنها ليست فلسفة مسيحية أصالة، فإننا نجد من التوماويين من يرد على ذلك بقوله : ما إن

[٤١] فايز صالح ابو جابر ، مصدر سابق ، ص ٣٥ .

ينفصل العقل عن الايمان – من حيث ممارسته العقلية– حتى تصبح كل علاقة داخلية بين الفلسفة والديانة المسيحية متناقضة .[٤٢]

ولن تجد فيلسوفا توماويا يوافق على أن مذهب الاكويني يتناقض في شيء لا مع نص الايمان ولا مع روحه ، وإنما سوف تجده يؤكد صراحة على أن الاتفاق بين الوحي والعقل هو إتفاق الحقيقة مع نفسها، ولكن لا نندهش اذا قبل التوماوييون اللوم الكلاسيكي الذي يوجهه اليهم الاوغسطينييون . "فلسفة ينقصها طابع مسيحي أصيل، ومبادئ الاكويني الفلسفية هي نفسها مبادئ ارسطو الوثني ، يعني مبادئ رجل لم يعلم شيئ عن أي وحي سواء أكان مسيحياً أم يهودياً". وإذا كانت التوماوية قد أخذت بمذهب أرسطو وطهرته وأكملته وجعلته أكثر دقة و كمالاً (يطلق على ذلك تسمية تعميد أرسطو) ، فإنها لم تفعل ذلك على الإطلاق بالإلتجاء الى الإيمان ، بل بواسطة استنباط النتائج المتضمنة في مبادئه بصورة أكثر دقة وصحة مما كان في استطاعة ارسطو ان يفعله لنفسه.

وبهذا تكون فلسفته في صميمها عبارة عن تجربة القصد منها توحيد عام ونظام شامل مفتاحه الوفاق و التنسيق. فالإله و الطبيعة عنده يسع كل المخلوقات التي تنتاب وجودنا المحدود و هما أكبر و أغنى من أن يضيقا بايجاد محراب ، وعلوم الانسان عنده أيضا تكوَن وحدة ، كما أن هناك علوما معينة كل منها يختص بموضوع معين ، هذه العلوم فسيحة واسعة المدى ، ولكنها أقل تعميماً، وفوق هذه العلوم علم الفلسفة وهو نظام عقلي يسعى لوضع مبائ عامة مستمدة من جميع العلوم ، يأتي بعد هذا علم اللاهوت المسيحي وهو يعلو على العقل ويعتمد على العقل الالهي ، و بذلك يأتي في قمة هذا النظام . ولكن وعلى الرغم من أن الوحي يعلو على العقل إلا أنه لايتعارض معه بأي حال من الأحوال . واللاهوت مكمل للنظام الذي يكَون العلم والعقل بدايته، ولا يقضي على إتصالهما مطلقاً. والإيمان أيضا متمم للعقل . وهما معاً مصدران للعلم والمعرفة ولا يمكن أن يصطدما أو يعملا في إتجاهين متضادين .[٤٣]

---

[٤٢] انتين غلسون ، مصدر سابق ، ص ٣٢ – ٣٣ .

[٤٣] جورج سباين ، مصدر سابق ، ص ٣٥١ .

وتتفق الصورة التي تخيلها الاكويني عن الطبيعة إتفاقاً تاما مع رأيه في المعرفة ، فالكون عنده عبارة عن نظام مرتب ذو درجات، تبدأ من الإله في علاه وتنتهي عند أدنى المخلوقات ، ويعمل كل كائن فيه بدافع داخلي مستمد من الطبيعته ، مجاهداً في سبيل الخير أو الكمال الملائم لطبقته من المخلوقات . ويستمر مجاهدا حتى يأخذ مكانه في هذا النظام التصاعدي حسب درجات الكمال التي وصل إليها . ويسيطر الأعلى في جميع الأحوال على الأدنى و يستفيد منه ، كما يسيطر الله على العالم، وكما تسيطر الروح على الجسد . ولكل كائن حي قيمته ، وله مركزه، وعليه واجبات وله حقوق يسهم عن طريقها في بناء المجموع، والوصول به الى حد الكمال (تسخير الجميع للوصول الى غاية معينة) . وفي مثل هذا النظام يكون للطبيعة البشرية مركز فريد بين المخلوقات كافة ، ليس لأن الإنسان يملك جسداً فحسب ، بل لأن له عقلاً و روحاً كان بفضلهما أقرب المخلوقات إلى الله.[٤٤]

المبحث الثاني :النظرية السياسية لتوماس الأكويني

من خلال هذا المبحث نبين نظرية الأكويني السياسية و أرائه حول الدولة والمجتمع و القانون والأخلاق، إذ نخصص المطلب الأول لتناول موضوع الدولة والمجتمع ، أما المطلب الثاني فخصصناه لشرح الفضيلة الأخلاقية والقانون عندالأكويني، أما المطلب الثالث فهو لبيان وجه نظره عن السلطة السياسية و نظام الحكم والعلاقة بين الحاكم و المحكومين .

المطلب الأول :الدولة والمجتمع:

إن فلسفة الأكويني السياسية ، شأنها شأن ما ورائياته وأخلاقياته ، هي ثمرة تنسيقه بين النظريات المسيحية والوثنية ، وخلال عملية التنسيق هذه رفض الأكويني الفكرة الرئيسية التي وضعها القديس أوغسطين عن الدولة وامتدت لتسعة قرون في الفكر المسيحي التقليدي، وخلاصتها أن بروز المجتمعات السياسية إلى حيز الوجود جاء حصيلة سقوط الإنسان وأنه مظهر اصطناعي عن خطاياه. وقد واجه الأكويني هذا

[٤٤] جورج سباين ، مصدر سابق ، ص ٣٥١ – ٣٥٢ .

الإعتقاد بالنظرية الأرسطوية القائلة: إن الإنسان حيوان سياسي و اجتماعي بحكم الطبيعة .[٤٥]

إن الأكويني يعترف بشرعية الدولة ويرفض أن يضيف عليها ، كـ(أوغسطين)[٤٦]، صفة الخطيئة. إنه ينظر إلى العالم على أنه يتكون من نظام تصاعدي يتبوأ الإله فيهأ على مرتبة. ولكن هذا النظام التصاعدي ليس في النظام الديني فقط ، بل وكذلك في التشريع الذي ينبع عن طبيعة الإنسان ، و يستمد وجوده من إرادة البشر. وهكذا تصبح العلاقة بين المدينة الإلهية و المدينة الأرضية ليست علاقة الصراع والتعارض، وإنما علاقة استيعاب واحتواء .وفكرة الدولة وأصولها تتصل أساسا، بنزعة الإندفاع الإجتماعي للإنسان : فالإنسان كائن إجتماعي بطبعه لايستطيع العيش خارج إطار الجماعة . ومن ثم تكون الدولة حدثاً طبيعياً تقتضيه طبيعة الحياة الإنسانية وتتمثل في كونها تنظيماً ارتضاه الأفراد بحريتهم لتحقيق أهداف الأفراد بالسعادة.[٤٧]

فالدولة والمجتمعات حسب هذه النظرة سابقة للفرد . والإنسان بحكم الطبيعة يحيا في المجتمع الأوسع من العائلة، والذي يضمه وجيرانه تحت حكم مشترك. والمجتمعات لم تقم نتيجة الفتح ولا العقد الإجتماعي ، ولا قامت لمجرد الحفاظ على الإستقرارأو لحماية المصالح ، بل إنها قامت لأن البشر بالطبيعة هم أعضاء فيها ، ولأن الحياة الإنسانية السليمة مستحيلة مالم يكن البشر أعضاء في متحدات سياسية– دول– .[٤٨]

وانطلاقا من هذه الرؤية فإنه يرفضفكرة أوغسطينيةأخرى تقول إن البشر أفسدت جميع مدن الأرض ، وإن آمال المسيحيين بقيام المجتمع الأفضل مرهونة بالعالم الآخر. فالأكويني اعتقد عكس ذلك ، وقال إن العدالة يمكن أن تشيع و أن

---

[٤٥] موريس كرانستون ، اعلام الفكر السياسي ، دار النهار، بيروت، ط٣ ، ١٩٩١، ص ٣٣ .

[٤٦] أوغسطين : (٣٥٤–٤٣٠) لاهوتي وفيلسوف مسيحي، واحد كبار آباء الكنيسة الكاثوليكية الاوائل، ولد في تاغشت في الجزائر، كان ابوه وثنياً بينما كانت امه مسيحياً ، له مؤلفات عدة ، ويعرف مذهبه بالأوغسطينية. للمزيد انظر: د.عبدالرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ج١، ١٩٨٤، ص٢٤٨–٢٥٢.

[٤٧] غانم محمد صالح، مصدر سابق، ص١٩١.

[٤٨] موريس كرانستون ، مصدر سابق، ص ٣٣ .

تنتصر في هذا العالم ، وأن المجتمع السياسي الراهنكرامته وشرفه الذاتيين ، وأنه من الممكن التحدث عن نظام مسيحي لحكم الإنسان على الأرض .وكانت عضوية الكنيسة عنده أسمى من شراكة المواطنة في الدولة .لكن ميز تمييزا واضحا بين مملكة الدين ومملكة الدنيا. واعتبر أن فنون الحكم والدولة تتطلب مهارات تختلف عن العمل في سلك الأنظمة الدينية . يضاف إلى ذلك أن الكنيسة عالمية في عضويتها، وفي هذا المجال فإنه يتبع تفكير أرسطو لجهة أن الدولة شيئ محدود في الحجم والعدد ، وعلى هذا الأساس فالكنيسة واحدة ، لكن الدولة متعددة.[٤٩]

إذاً فحجر الزاوية الأساس لفلسفة الأكويني السياسية هي الفكرة الأرسطوية عن الطبيعة، وبذلك يكون المجتمع شيئاً طبيعياً بالنسبة للإنسان ، ليس بوصفه شيئاً ممنوحاً له من الطبيعة ، بل بوصفه شيئاً يميل إليه بالطبيعة، وضرورياً بالنسبة لكمال طبيعته العاقلة. لقد وجد الإنسان نفسه في العالم عاجزاً ومعدماً ، لكن الطبيعة زودته بالعقل ، والكلام، واليدين، تلك الأشياء التي يستطيع بواسطتها أن يزود نفسه ويواجه حاجياته عندما تظهر. مع ذلك فحصول الفرد على ما هو ضروري لحياته مسألة تجاوز قد رأته ، ولكي يبقى الإنسان أبان السنوات التي تسبق تطور الذهن ، واكتساب المهارات اليدوية ، ولكي يعيش بصورة أكثر ملائمة في سنوات متأخرة ، فلا بد أن يعتمد على المساعدة التي يقدمها له الآخرون.[٥٠]

إن المجتمع الأول الذي ينتمي إليه الفرد ، والذي لا يستطيع أن يعيش بدونه ، هو الأسرة التي يكون غرضها المحدد هو الحصول على ضرورات الحياة وأن تكفل حفظ الفرد والنوع . بيد أن الأسرة لا تستطيع وحدها أن تزود الإنسان بكل السلع المادية التي يحتاج إليها لحفظ بقائه وحمايته، ولا تستطيع أن تقود كل أعضائها إلى كما الفضيلة . إن الرابطة البشرية التي تكون كافية بذاتها بحق، والرابطة الوحيدة التي تستطيع أن تكفل شروط الفضيلة ، وتشبع كل حاجات الإنسان الدنيوية و طموحاته هي المدينة. فالمدينة هي العمل الأكثر كمالا للذهن البشري . وعلى الرغم من أنها طبيعية

---

[٤٩] المصدر نفسه، ص ٣٤.

[٥٠] ليو شتراوس و جوزيف كروسي، تأريخ الفلسفة السياسية ، ج١ ، ترجمة محمود سيد احمد ، المجلس الاعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٥، ص ٣٧٠ .

بصورة أقل من الأسرة بالنظر إلى صورتها ...فإنها مع ذلك منظمة إلى غاية أكثر سمواً وأكثر شمولاً، ومن حيث أنها مجتمع كامل ، فإنها تضم كل المؤسسات الأخرى التي تستطيع الموجودات البشرية أن تكونها ، بما في ذلك الأسرة التي تخضع لغايتها الخاصة في تكوين الخير البشري الكامل .لذا لا يستطيع الانسان أن يبلغ كمال الحياة إلا بداخل إطار المجتمع المدني .[٥١]

المطلب الثاني:الفضيلة الأخلاقية والقانون:

اذا كان الأكويني لم يبدأ (النظرية الميتافيزيقة) بإحساسه بوجود الله ، فهو كذلك لم يبدأ (البحث في الأخلاق) بالإعتراف ببصيرة أخلاقية ، فهو يرى بأن النشاط الإنساني موجه نحو السعادة . والواقع أن هذه السعادة هي الله ، لكن علينا أن نستكشفه ، وإذا وجب علينا الكشف عنه ، ينبغي علينا أن نبحث عنه على النحو الذي من شأنه أن يحقق لنا ذلك الكشف . وعلى هذا الأساس الإفتراضي تترتب فلسفة الأكويني الأخلاقية. وهي التي لا يمكن أن تفهم بمعزل عن نظريته في النفس و تعاليمه اللاهوتية ما دام " ما ينبغي أن يكون مترتباً اساساً على قدراتنا كما هي كائنة". وهو ينزعفي الاخلاق نزعة عقلية لأنه يرى أننا نحصل على السعادة بفعل من أفعال المعرفة، وإن الحكمة تلعب دوراً مهماً في الوصول إلى السعادة.[٥٢]

كان الأكويني أرسطوياً في الكثير من جوانبه . و إذا نظرنا لموضوع الأخلاق لديه نجد أنه يأخذ الفكرة الأساسية للاخلاق الطبيعية عن أرسطو ، إذ يرى أن إرادتنا تنزع أو تتجه اتجاها طبيعياً وعفوياً نحو الخير الذي هو غايتها . ولذلك يوجد نور طبيعي في الإنسان يهديه نحو هذه الغاية . هذا النور هو الذي يسميه الأكويني بـ"القانون الأزلي" . وبذلك فإن شرائع الأخلاق والقانون إنما تقوم على أساس عقل الله الذي تخضع له كل الإرادات البشرية ، لأن القانون الأزلي يمثل عقل الحكمة الإلهية.[٥٣] وتكشف الطريقة التي يقسم بها الاكويني العلم الأخلاقي .

---

[٥١] ليو شتراوس و جوزيف كروسي ، مصدر سابق، ص ٣٧٠-٣٧١ .

[٥٢] الموسوعة الفلسفية المختصرة، مصدر سابق، ص ٧٦ .

[٥٣] علي عبود المحمداوي ، مصدر سابق، ص ٨٢ .

إن مؤلفه " شرح الأخلاق" يبين أن وحدة الأسرة ، أو وحدة المدينة ليست وحدة عضوية ، وإنما هي وحدة نظام فقط ، ويبين بالتالي أن أعضاء هذه المجتمعات يحافظون على مجال من الفعل يختلفعن مجال الكل . ويستنتج الأكويني نتيجة مفادهاأن الأخلاق ، والإقتصاد ، والسياسة ، ليس علماً واحداً يتألف من ثلاثة أجزاء، وانما هي ثلاثة علوم منفصلة ومتميزة على الخصوص ، وبالتالي يخلع على كل من الأخلاق والاقتصاد استقلالاً ذاتياً لايمتلكانه في الترتيب الأرسطوي. كما يلاحظ الأكويني في مناقشته لإستعداد المواطن الفاضل أن يتخلى عن حياته من أجل وطنه ، وإن هذا الفعل هو موضوع الميل الطبيعي ، إذا كان الإنسان بطبيعته جزءاً من المجتمع الذي يضحى من أجله . ويعنى ذلك أن علاقة الإنسان بمجتمع مدني ليست طبيعية وإنما هي مكتسبة . ويفسر قول أرسطو:أن الفضيلة الأخلاقية لها صلة بنظام الحكم بأنه يشير الى الخيرية النسبية للإنسان من حيث أنه مواطن ، ولا يشير الى خيريته المطلقة من حيث انه انسان . إذ يفترض ان الخيرية المطلقة لاتنفصل عن الحكمة العلمية ، التي يعرف كل شخصبها مبادئها الأولى ، ويفهمها بالإستقلال عن نظام الحكم السياسي . وفي ظل هذه الظروف تفقد فكرة نظام الحكم الأفضل – من حيث كونه الشرط الأول الذي لا يمكن الإستغناء عنه لسعادة الأفراد والمدن– أهميتها القصوى ، مثلما تفقد الفلسفة السياسية أهميتها التي إعتمد أساساً على توجيه نظام الحكم الأفضل بالنسبة لتحقيقه الفعلي.[٥٤]

و يؤكد الأكويني على الخيرية الأخلاقية ويصفها بالعدالة ، ويرى أن سبب وجود السلطة السياسية وغايتها هو بسط العدالة (على الملك أن يكون عادلاً و كذلك الإداريين الذين يعينهم) ، وإن المَلكية هي العدالة ، والطغيان هو الظلم . وهنا يؤكد على الملك الحقيقي والطاغية ، فالملك ملزم بإحقاق الحق ، و حب العدل ، فهو قبل كل شئ خادم للعدالة . فالأمير الحقيقي صورة للعناية الإلهية ؛ لذا يجب أن يكون محبوباً و عزيزاً و موضع إحترام ، أما الطاغية فهو صورة الشر ، ويجب أن يُقتل ، وهذا العمل مسموح به شرعاً ومرغوب به باسم العدالة التي تنتقم لنفسها (دعاء المضطهدين

[٥٤] ليو شتراوس و جوزيف كروبس ، مصدر سابق ، ص ٣٧٦-٣٧٧ .

بخشوع لله من أجل أن يخلصهم من المصيبة التي يعانون منها). وفي كل الأحوال فإن الملك السيد سيحاسب أمام الله عن قيامه بواجبه الأساسي في العدل . و بدأ الاختلافات في مدى تدخل الكنيسة التي تمثل الله على الارض.[٥٥]

إن الأكويني ينظر للعدالة بإعتبارين : توزيعية و تعويضية . فإذا تعلق الأمر بالعلاقة بين الفرد والجماعة التي تنسب اليها سميت العدالة التوزيعية ، وإذا تعلق الأمر بفرد مع آخر سميت تعويضية . ولا يقصد من العدالة التوزيعية المساواة بين أفراد المجتمع الواحد في النصيب في خيرات هذا المجتمع ، وإنما يقصد فقط أن يحصل كل فرد في المجتمع على ما يستحقه بحسب مكانته في هذا المجتمع : والمكانة ترجع إما إلى العدالة أو إلى الثروة ، أو إلى الحقوق التي اكتسبه . أما العدالة التعويضية فهي عدالة التبادل بين الأفراد (كما هو الحال في البيع والشراء) ، وهي عدالة حسابية بعكس الأولى .[٥٦] وبالنسبة له فإن انتهاك العدالة التوزيعية يكون بإدخال إعتبار آخر غير الإستحقاق ،أو على حد تعبيره إدخال الإعتبارات الشخصية في توزيع الخيرات ، بأن يعطي شخص شيئاً لشخصهلا لإستحقاقه بحسب المرتبة التي يشغلها في المجتمع. أما إنتهاك العدالة التعويضية فالشواهد عليها كثيرة ، نظراً الى تنويع السلع القابلة للتبادل . ويحدث هذا الإنتهاك حين يأخذ المرء ولا يعطي شيئاً في مقابل ما يأخذ ، وأفضع من ذلك أن يسلب الإنسان إنساناً آخر ما لا يمكن تعويضه عنه ، ويعني به الحياة. هذا هو القتل ، والقتل أفضع رذيلة يمكن أن يرتكبها الإنسان ضد أخيه الإنسان.[٥٧]

وبذلك تجد العدالة شكلها الملموس والدقيق في القانون أو الحق . والقانون حسب المفهوم الوسطي البدائي الموروث عن قبائل الجرمانية ، كان مُلكاً خاصاً و صفة مميزة للمجموعة أو الجماعة أو الشعب الذي ينظم شؤونه. وكان القانون بالأساس عرفاً كتعبير عن أسلوب حياة الجماعة ، وكنوع من الحكمة . إن الجماعة لم تكن تضع قانونها بعمل إرادي ، وإنما القانون هو الذي كان يضع الجماعة ، وكان يجمع كل

---

[٥٥] جان جاك شوفالييه ، مصدر سابق ، ص ٤٣١ .

[٥٦] عبد الرحمن بدوي ، مصدر سابق ، ص ٤٣١ .

[٥٧] المصدر نفسه ، ص ٤٣٢ .

الأعضاء بقوة ، وإن علاقات الجماعة أو الشعب بالقانون ، هي علاقات جسم حي بمدئه المنظم . إن سلطة القانون كانت تتوافق مع الإعتقاد العام الموروث عن العالم القديم بحقيقة القانون الطبيعي. وبقدر ما كان المجتمع الوسيطي ينمو، وتتعقد مؤسساته السياسية ، كان من الواجب اللجوء لمفهوم مختلف، هو مفهوم القانون كتعبير عن إرادة واعية .[٥٨]

كان الأكويني يعتقد بتقديس القانون ، وإن سلطة القانون كامنة فيه وليست من عمل الإنسان . و اتجهت جهوده الى التدليل على وجود علاقة وثيقة بين القانون السماوي و القانون الإنساني ، ويرى أن القانون شيء أوسع مدى من مجرد وسيلة لتنظيم علاقة الناس بعضهم ببعض . فالقانون عنده جزء لا يتجزأ من نظام الحكم الإلهي الذي يسيطر على كل شيء في السماء والأرض ، وهو حكمة من الله لتنظيم العلاقات بين جميع المخلوقات . أما القانون بالمعنى الإنساني الضيق فكان له مظهر واحد من مظاهر حقائق الكون (رغم اهميته)، من بين المظاهر العديدة . هذه النقطة كان لها أهمية كبيرة عند الأكويني ، فوجه عنايته إلى تطور نظريته العامة عن القانون بدرجة تفوق عنايته بأي جزء آخر من نظريته السياسية . وقسم القانون إلى أربعة أقسام، ولم يتصور أن أية إرادة إنسانية كانت أم إلهية ، قد صاغت قانوناً للمجتمع أو للطبيعة . فالأقسام الأربعة التي قسم القانون إليها تمثل أربع صور من العقل تتجلى في أربع رتب من حقائق الكون، وإن كان العقل فيها جميعاً واحداً لا يتغيير . والأسماء التي أطلقها على هذه الأقسام الأربعة هي : القانون الأزلي، والقانون الطبيعي، والقانون الإلهي، والقانون الإنساني .[٥٩]

أ. القانون الأزلي : وهو القانون الذي يدبر شؤون الخليقة كلها ، عبر الحكمة الإلهية التي تسمو فوق فهم الانسان .[٦٠] هذا القانون يتطابق مع العقل الرباني لأن حكم الله للعالم لا يحده الزمن. بعبارة أخرى هو القانون الذي

---

[٥٨] جان جاك شوفالييه ، مصدر سابق ، ص ١٨٠-١٨١ .

[٥٩] جورج سباين ، مصدر سابق ، ص ٣٥٥ – ٣٥٦ .

[٦٠] على عبود المحمداوي ، مصدر سابق ، ص ٨٣.

يحكم الله به العالم . مع ذلك فهو ليس غريباً عن الإدراك الانساني أو مضاداً لقواه العقلية، طالما أن الإنسان يشارك بتطبيقه بطبيعته.[٦١]

ب.القانون الطبيعي : ويصفه بأنه إنعكاس للحكمة الإلهية في المخلوقات . وهو يتجلى فيما تغرسه الطبيعة في سائر الكائنات الحية من ميل نحو فعل الخير ، وتجنب الشر ، وحماية النفس ، أي أن يحيا الإنسان حياة ذات طبيعة متزنة ومعقولة.[٦٢] ومعنى هذا أن القانون الطبيعي هو قانون يكتشفه الإنسان عن طريق عقله بفضل بحثه على غرض الله في خلقه وعن إرادته في ذلك الخلق . هذا القانون هو منحة من الله يحكم به العقل أو النفس الطبيعة الفاضلة التي تتأثر بالقانون الأزلي .[٦٣]

ت.القانون الإلهي : في نظره هو الوحي أو التبليغ(شريعة اليهود ، وكذلك الأحكام الخاصة للأخلاق والتشريعات المسيحية التي جاءت عن طريق الكتب المقدسة أو الكنيسة) . هذا القانون نعمة من نعم الله وليس من عمل العقل الطبيعي . انه لم يقلل من اهمية القانون المسيحي الذي جاء عن طريق الوحي ، ولكنه حرص كثيراً على ألا يوسع الفجوة بين العقل وبين هذا القانون . فالوحي يؤيد العقل ولايمكنأن يكون معادياً له .[٦٤]فالقانون عنده مزدوج ، ويتجلى في "العهد القديم" و " العهد الجديد" . وإن هذا القانون مُنَزل كهبة النعمة الإلهية ، والتي لا يمكن تفسيرها بالعقل الإنساني وحده ،كما أنه يتفرع من القانون الأزلي باعتباه المصدر المشترك والأصل .[٦٥]

ث.القانون الإنساني (الوضعي) : وقد قسمه إلى قانون الشعوب و قانون مدني ، واعتبره خاصاً من حيث أنه ينظم نوعاً واحداً من المخلوقات . وإن هذا القانون لم يأت بمباديء جديدة ، إذ هو مجرد تطبيق للمباديءالعظمى لنظام سائد من قبل في أنحاء العالم . و هذا القانون يضع مقياساً بواسطة العقل لخير المجموع وليس لمنفعة فرد أو

---

[٦١] غانم محمد صالح، مصدر سابق ، ص ١٩٥.

[٦٢] جورج سباين ، مصدر سابق ، ص ٣٥٧ .

[٦٣] غانم محمد صالح، مصدر سابق ، ص ١٩٦.

[٦٤] جورج سباين ، مصدر سابق ، ص ٣٥٧.

[٦٥] جان جاك شوفالييه ، مصدر سابق ، ص ١٩٠.

طائفة معينة ، وكذلك يرتكز إلى سلطة عامة تسنده وليس إلى إرادة فردية ويصفه بانه " شريعة تستهدف الخير العالم ، املاها العقل وصاغها من يرعى شؤون الجماعة ، ثم أشهرت" .[٦٦]

وهذا القانون يتفرع من القانون الطبيعي بإعتباره نتيجة وتحديداً خاصاً للأوامر المشتركة لهذا القانون . وعلى القانون الإنساني ان يسد فراغ الهوة الموجودة بين المبادئ الكلية للقانون الطبيعي ، وتفاصيل الأعمال الخاصة التي يجب أن تتفق معها ، والتي لا يمكن لأي تفكير فردي أن يكون قادراً على تجاوزها " . ويلجأ القانون الإنساني علاوة على العقل إلى الإنضباط الإكراهي في البداية بسبب الخوف من العقاب. ومن القوة القمعية التي تمارسها الدول، هذا الإنضباط يمكن أن يأتي للبشر بقابلية الفضيلة .[٦٧]

المطلب الثالث : السلطة السياسية ونظم الحكم:

إن المفهوم المزدوج لسمو القانون وسمو الجماعة ،كان يحد من السلطة الملكية ، وقد تقوى هذا التحديد بشكل خاص بالفكرة التقليدية الآتية من ميثاق أو عقد موجود بين الملك والجماعة ، و معبر ضمنياً عن سمو هذه الجماعة . إن فكرة العقد عرفها السفسطائيون واخذ بها الأبيقوريون ، والذي يقول بأن المجتمع السياسي ينشأ نتيجة عقد منفعي بين الأنانيات الفردية بهدف الحصول على الأمن، هذه الفكرة لاقت رواجاً في القرنين السابع عشر والثامن عشر، إلا أن الأمر ليس في السياق العصر الوسيط ، يتعلق بعقد من نوع آخر ، عقد ذاتي يخضع الجماعة أو الشعب بموجبه للحكام مقابل بعض الشروط (بذرة هذا النوع من العقد يمكن أن نلمسها في مؤلف القوانين لأفلاطون) . و إن مهمة الحاكم تكمن في نشر النظام والعدالة ، واذا انتهك هذا الميثاق فإن الشعب يجد نفسه أمام حل العقد ، بملء الحق ، من الطاغية، و للبابا حق المراقبة والتدخل، فالكنيسة بواسطة رئيسها، تأخذ علماً بعقد الخضوع ، وتحكم فيما إذا كان الحاكم (الأمير أو الملك) جديراً بالتعهدات التي قطعت تجاهه . فهي تسند له الحكم بواسطة التتويج العلني أو التقديس ، وتحتفظ لنفسها بسحبه إذا

---

٦٦) جورج سباين ، مصدر سابق ، ص ٣٥٨ – ٣٥٩ .

٦٧) جان جاك شوفالييه ، مصدر سابق ، ص ١٩٠.

لم يقم بإنجاز واجباته. وإن الإلتزام التعاقدي الرئيسي للملك الذي هو بالأساس قاضٍ وليس مشرعاً يكمن في نشر العدل ، وهذا العدل يجد في القانون شكله الدقيق والملموس ، و إن هذا القانون هو فوق الملك . لهذا فإن احترام الملك للقانون إزاء رعاياه هو أيضاً التزام تعاقدي.[٦٨]

لقد طور الأكويني فكرة أرسطو عن أن الدولة مؤسسة طبيعية ، فأدخل عليها فكرة جديدة، هي نظرية القانون الطبيعي، فهو يرى أن الطبيعة جعلت البشر يعيشون في ظل الحكومات ، ويشترط أن تكون الحكومات عادلة حتى تنسجم مع الطبيعة، وإن معايير العدالة شأن وضعه الخالق وتشاهده عين العاقل في الإنسان. وبعارة أخرى فإن القانون الوضعي للدول يجب أن يتطابق مع المبادئ الأخلاقية الأساسية المعروفة تقليدياً بالقانون الطبيعي . إلا أن الأكويني يعارض بشدة المثقفين المسيحيين الذين يرغبون في أن تقوم الكهنة بدور الحماة الافلاطونيين في مجتمع تحكمه الفلاسفة، فهو يعتقد بالأشكال (الطبيعية) للحكم التي مورست في التأريخ. وفضلا عن هذا فإنه على الرغم من رفضه نظرية العقد الإجتماعي ، يؤكد على عنصر تعاقدي في الدستور الفعلي للمجتمع العادل ويقول : إن القانون هو أولاً وقبل كل شيء أمر بالخير العام، وإن حق الأمر بأي شئ للخير العام يختص بالمجموع كله أو بشخص يمثل هذا المجموع.[٦٩] وهذا لايعنيأنه كان ميلا إلى النظام الديمقراطي فهو لم يكن كذلك ، بل كان يعتقد أن أفضل مدينة زمنية هي التي تكون مملكة على غرار السماء ، لكنه مع ذلك كان يذهب في دعوته إلى وجوب إرساء الحكم على قواعد التوافق و الإنسجام . وهو في هذا الصدد يقتفي أثر أرسطو فيقسم نظم الحكم إلى نظم صالحة يراعي فيها الحكام منفعة المحكومين،أنظمة حكم ملكية و أرستقراطية وديمقراطية، وأخرى فاسدة ..لا يراعي الحكام فيها غير مصالحهم الذاتية كالنظم الإستبدادية و الأوليكارشية والغوغائية . فإذا كان أرسطو يبدي تردده بقبول النظام الملكي ، فلا يقره إلا في ظل شروط معينة ، فإن الأكويني يؤثره دون قيد أو شرط .[٧٠]

---

[٦٨] جان جاك شوفالييه ، مصدر سابق ، ص ١٨١ – ١٨٣ .

[٦٩] موريس كرانستون ، مصدر سابق، ص ٣٤–٣٦.

[٧٠] غانم محمد صالح ، مصدر سابق، ص ١٩٣.

فأفضل الحكومات هي الملكية ، بسبب الوحدة التي تؤمنها هي وحدها للمجتمع، فلا الأرستقراطية التي يخشى أن تتحول الى الإستبدادية أو الأوليكارشية أو الديمقراطية ، ولا الجمهورية حتى قادرتان على تحقيق أفضل الحكومات . وإن أفضل النظم السياسية هي التي تخضع الجسم الإجتماعي لحكومة الفرد، إلا أن حكم الدولة من قبل الفرد يجب أن يستند الى الشعب ليؤمن الخير العام (النظام المتزن) . ويرتب نظم الحكم كالتالي : الملكية لأن فردا واحداً يحكم ، الأرستقراطية نظراً لأن عدة أشخاص يمارسون السلطة فيها بسبب فضيلتهم . والديمقراطية أخيراً ، أي سلطة الشعب نظراً لأن الرؤساء فيها يمكن أن يكونوا من صفوف الشعب الذي اختارهم . وإن الملكية عنده بعيدة عن أن تكون ملكية مطلقة من الحق الإلهي. وإذا كان الملك في مملكته بمنزلة النفس في الجسد، فإن ذلك لا يعفيه من أن يكون فاضلاً، وأن يتبع تعاليم الكهنة.[٧١]

بعبارة أخرى فإن تفضيله للملكية تستند إلى[٧٢] :

أ. الإعتبار الديني : إن ممارسة السلطة الملكية شبيهة بما يمارسه الله من سلطان . كما أن التركيبة التي تسود النظام الملكي تشبه ما أراده المسيح للكنيسة . إذ ينظر إلى العالم على شكل نظام تصاعدي أعلى مرتبة فيه الله .

ب.الإعتبار الفلسفي : إن كل فن إنما يقلد ويحاكي الطبيعة . وبما أن الطبيعة ترتكز على مبدأ الوحدة ، فإنه يجب أن تكون السلطة السياسية في نظام يعتمد الوحدة في القيادة ولذلك يكتسب النظام الملكي قوة وأفضلية عما سواه من الانظمة التي تتعدد فيها السلطات.

ت.الإعتبار التأريخي : يرى الأكويني أنه كلما فرغ منصب الملك فإن المدينة تنهار ، و يستشهد لذلك بشواهد تأريخية كثيرة . ولذلك فالملكية يمكن أن تكون النظام الأفضل إذا لم تنحرف عن أهدافها فتصبح الأسوء مع الإستبداد ، وذلك بداعي الأنانية . فالأنانية تقود الملك إلى العزلة.

---

[٧١] جان توشار ، تأريخ الفكر السياسي ، ترجمة علي مقلد ، الدار العالمية ، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٦٣-١٦٤ .

[٧٢] علي عبود المحمداوي ، مصدر سابق ، ص ٨٥.

إلا أن الأكويني يستدرك ذلك عبر قوله بأن النظام المختلط هو الذي يمكن أن يجنبنا هذه التحولات نحو الأسوء . وهو يتكون من " الملكية، والارستقراطية، والديمقراطية " وتظهر هنا إفادته من أرسطو وشيشرون، ويحصر الأكويني حسنات النظام المختلط في أمرين : أولهما إن مشاركة الشعب في الحكم هي الوسيلة الأنجع والوحيدة في المحافظة على السلم الإجتماعي . وتلك المشاركة تكون كفيلة ببناء الدولة والدفاع عنها . وثانيهما: إن مشاركة النخبة في الحكم تبعد الملك عن الإنحراف و التحكم والإستبداد .لم يكن الأكويني ليبعد الملكية عن صور النظم الصالحة ، وإنما عمل على تزويدها بدعامات النخبة والشعب . فنظام حكم الفرد لديه يجب أن يكون وفق قوانين عادلة ويعاونه في ذلك مجموعة من الاداريين والولاة المنتخبين من قبل الشعب ، وبذلك يتيح للجميع ممارسة سلطة الإختيار والحكم .[٧٣]

وهكذا تتبين عنده صدى فكرة أرسطو في الدستور المختلط الذي تلتحم فيه معالم ملكية، وأرستقراطية، وديمقراطية . وهو إذ يعدد وسائل تنظيم مجتمع عادل لا ينسى إطلاقاً أن في عالم الواقع حكومات طاغية . وهو أبعد ما يكون من دعوة المسيحيين إلى وجوب الائتمار فقط بما يصدر عن حكم عادل أو مسيحي حقيقي . ذلك لأن طاعة الحكومات عنده جزء من نظام الأشياء الطبيعية . إلا أن للمسيحي الحق في عصيان الأوامر ، في حالة وحيدة، وهي ما إذا جاءت مناقضة بصورة أساسية للقانون الطبيعي . هنا لا تعود للقوانين غير العادلة أية قيمة أخلاقية . وهو لا يرغب في إسباغ أية صفة قانونية على أي حكم مناقض لمبادئ العدل الأساسية .[٧٤]

إن نظرية القوانين ونظرية السلطة تساهمان مع بعضهما البعض في رفض كل نظام تعسفي ، وفي دعم الكراهية للظلم والطغيان. إن الأكويني يحرص على إبداء أكثر التحفظات حول الطاعة الواجبة للحاكم الذي يكف عن السعي لتحقيق الخير المشترك، وينتهك القانون الطبيعي، فهو يعالج العدالة و ظلم القوانين ذات المصدر البشري . فهذه القوانين يمكن أن تكون ظالمة للخير الإنساني ، أو بالنسبة للخير

---

[٧٣] مارسيل بريلو و جورج ليسكييه ، تأريخ الافكار السياسية ، الاهلية للنشر ، بيروت ، ١٩٩٣، ص ١١٢.

[٧٤] موريس كرانستون ، مصدر سابق ، ص ٣٧ .

الإلهي . إن مثل هذه القوانين لا تُلزم الضمير لأنها تعتبر مظاهر للعنف أكثر مماهي قوانين ، لكن الناس يراعونها تجنباً للأسوء وللفضيحة والفوضى .[٧٥] وبذلك يصعب تعيين المدى الذي كان الأكويني يقبل التسليم به فيما بات يعرف لاحقاً بحق الثورة ضد الطغيان . لكن من الواضح أنه لم يكن يقيم أي اعتبار إلا للتعقل في قبول الناس لحكم الطاغية . وكان يعتبر التعقل والحصافة فضائل اساسية في الحياة السياسية . والحصافة لا تقيم مقاصد أخلاقية بل تقدم الوسائل لها . ومن هنا لم يكن يوافق على مقاومة يائسة للطغيان أو على عصيان مدني أبله.[٧٦] ولكن بما ان الغرض من قيام المجتمع غرض أخلاقي ، وأن الحكومة تقوم قبل كل شئ لغرض أخلاقي وهو إقرار الحياة الفاضلة والسعيدة، فيجب أن تكون لسلطة الحاكم حدود ، وعليه أن يمارس سلطته وفقاً للقانون. ويشير الأكويني من خلال ذلك إلى طرق معالجة الاستبداد ، ويجعل للشعب حق مقاومة الحاكم المستبد الظالم الذي يتجاوز حدود سلطته ، ولكنه يقيد هذا الحق بشرطين : الأول: ألا تمارس هذا الحق طائفة بعينها من الشعب . بل يجب أن يمارسه جميع الشعب . والثاني:أن يأخذ القائمون بالمقاومة على مسؤوليتهم ألا ينتج عن حركتهم تلك المساوئ التي قد تفوق مساوئ الحاكم المستبد أو تعادلها.[٧٧] مايعني الإقرار بحق الشعب في إنهاء الإستبداد بالقوة بشرط عدم الإضرار بالصالح العام.

أما عن علاقة الدولة بالكنيسة فإن الأكويني يرفض الفكرة الإغريقية القائلة بإعتبار الجماعة أقصى الغايات، وهي مصدر للقيم الروحية. لذا يصور العلاقة بين الدولة والكنيسة على غرار السفينة التي تغمر عباب البحر، حيث يكون الحاكم الزمني بمثابة البحار الذي يعمل على صيانتها خلال الرحلة ، في حين أن المسيح يكون بمثابة القبطان الذي يوجهها إلى هدفها النهائي . بعبارة أخرى يرى أنه طالما وجد تداخل بين مجال إختصاصات الكنيسة و الدولة فيجب أن يخضع الغرض الدنيوي للإنسان

---

[٧٥] جان جاك شوفالييه، مصدر سابق ، ص ١٩١.

[٧٦] موريس كرانستون ، مصدر سابق ، ص ٣٧ .

[٧٧] لكنه استنكر صراحة قتل مثل هذا الحاكم . وينظر: بطرس بطرس غالي و محمود خيري عيسى ، المدخل في علم السياسة ، مطابع الاهرام، القاهرة ، ط٥ ، ١٩٧٦، ص٦٥.

للغرض الروحي، لأن هذا الأخير هو الغرض الوحيد الذي يتخذ في ذاته ، ومن ثم كان على الحاكم أن يبحث عن الغرض الأول (الدنيوي) لا كغاية بحد ذاته ، وإنما كوسيلة لتحقيق الغرض الثاني (الروحي). وهو عندما يفعل ذلك يجب عليه أن يخضع للسلطة الدينية . فالدولة ليست مستقلة عن الكنيسة، بل هي خاضعة لها بالقدر الذي يختلط فيه مجالهما. وهذا يعني أن الكنيسة فوق الدولة .[٧٨]

الخاتمة

نختتم بحثنا هذا بعرض أهم النتائج التي توصلنا إليها، وسنبدأ بعرض النتائج وعلى النحو التالي:

١. كان التمييز بين الجوانب الروحية والجوانب الدنيوية هو احد دعامات الفكر المسيحي الأساسية ، أي التفرقة بين عالم الروح وعالم الوجود ، فإن هذه الدعامة جابهت مشكلة العلاقة بين المؤسسات الدينية والمؤسسات السياسية للمسيحي، فكانت معتقداته الدينية الجديدة من شأنها أن تجعل منه خائناً لواجباته من وجهة نظر الامبراطورية القديمة، ذلك لأن الحكم الوثني تجمع بيده السلطتين الزمنية والدينية ، في حين ارتفعت الواجبات الدينية في نظر المسيحي إلى أقصى إلتزام مباشر نحو الله ، وطبقا لذلك لا يستطيع أن يميز مسألة إقحام السلطة الزمنية لنفسها في هذه العلاقة بين الانسان وخالقه.

٢. ان مؤلفات ارسطو كانت توهم بالكفر أول ماجاءت الى أوروبا المسيحية عن طريق المصادر العربية واليهودية ، وكانت الكنيسة تميل أول الأمر إلى تحريمها ، وفعلا قامت بذلك، ولكن ذلك التحريم لم يكن فعالا ، وبذلك عمدت الكنيسة بحكمة إلى التجديد بدلا من منعها ، وسرعان ما تم تقبل مؤلفات أرسطو وأصبحت حجر الزاوية في الفلسفة الرومانية الكاثوليكية ، وما كانوا يخشونه ويعتبرونه بدعة ضد المسيحية، إنقلبإلى شيء جديد يرجى أن يكون مذهباً دائماً لفلسفة تصطبغ بصبغة المسيحية. وقد قام بهذا الأمر معلمون من جماعات الرهبان وبخاصة (البرت الكبير) وتلميذه الشهير (توماس الأكويني).

---

[٧٨] غانم محمد صالح ، مصدر سابق ، ص ١٩٥.

٣. يُعد توماس الأكويني صاحب الفكرة التوماوية وسميت فلسفته بالتوماوية نسبة لاسمه ، وفي عام ١٣١٨ أعلن البابا أن التوماوية منحة إلهية ، وأن الاكويني قديس ، وجد الكاثوليك في التوماويةأسلحة فلسفية يحاربون بها الفلسفات الحديثة الإلحادية و اللاأدرية.

٤. كان الأكويني يعتقد أن وجود الله ليس واضحاً بذاته ، ويعارض أولئك الذين يذهبون إلى أن وجود الله فطري في الإنسان ، إذ يعتقد أنها فكرة باطلة ، فليس وجود الله فطرياً، وإنما المبادئ العقلية هي التي يستدل بها على وجوده وبذلك يستنتج الأكويني وجود الله بحجج وأدلة واضحة، و قد استعان الأكويني بأرسطو، وفارابي، و ابن سينا، و البرت الكبير وأخذ منهم.

٥. ويستنبط من فلسفة توما الأكويني عن الدين و العقل ، أنه من الممكن الوفاق والتناسق بين العقل والطريقة العلمية وبين الدين والإيمان ، وإن هذه ليست متعارضة مع بعضها البعض بل متممة لبعضها البعض ، إن وجود الله هو أمر منطقي و علمي، ولا يتركز الإعتراف به على الإيمان فقط . وتسمى هذه الحجة بالحجة الأنطولوجية ، حيث من الممكن التوصل لمعرفة الله والحقيقة بواسطة الدراسة والبحث ومراجعة المصادر الموثوق بها . وليس فقط عن طريق قراءة كتب الدين .

٦. أما بخصوص فلسفته عن النظام الحكم والمجتمعات فالدولة والمجتمعات حسب هذه النظرة ، سابقة للفرد. والإنسان بحكم الطبيعة يحيا في المتحد الأوسع من العائلة، والذي يضمه وجيرانه تحت حكم مشترك. والمجتمعات لم تقم نتيجة الفتح ولا العقد الاجتماعي ، ولا قامت لمجرد الحفاظ على الإستقرار او لحماية المصالح ، بل إنها قامت كنتيجة لغريزة الإنسان الإجتماعية، و لأن البشر بالطبيعة هم أعضاء فيها ، ولأن الحياة الإنسانية السليمة مستحيلة مالم يكن البشر أعضاء في متحدات سياسية–دول–.

٧. لقد طور الأكويني فكرة أرسطو عن أن الدولة مؤسسة طبيعية ، فأدخل عليها فكرة جديدة ، هي نظرية القانون الطبيعي ، فهو يرى أن الطبيعة جعلت

البشر يحيون في الحكومات ، ويشترط أن تكون الحكومات عادلة حتى تنسجم مع الطبيعة ، وأن معايير العدالة شأن وضعه الخالق وتشاهده عين العاقل في الإنسان.

٨. إن فلسفة الأكويني السياسية شأنها شأن ما ورائياته وأخلاقياته ، هي ثمرة تأليفه بين النظريات المسيحية والوثنية ، وخلال عملية التأليف هذه رفض الأكويني الفكرة الرئيسية في الفكر المسيحي التقليدي عن الدولة، والتي وضعها القديس أوغسطين، ومضى عليها تسعة قرون خلت، وخلاصتها أن بروز المجتمعات السياسية إلى حيز الوجود جاء حصيلة سقوط الإنسان وأنها مظهر إصطناعي عن خطاياه. وقد واجه الأكويني هذا الإعتقاد بالنظرية الأرسطوية القائلة: إنن الإنسان حيوان سياسي و اجتماعي بحكم الطبيعة.

الملخص :

لقد تميز الفكر المسيحي في العصر الوسيط بالفصل بين السلطة الزمنية للامبراطور و السلطة الالهية التي كانت (للبابا) ، لقد نظرت المسيحية عند ظهورها الى الفلسفة اليونانية نظرة ملؤها الشك وعدم الثقة ، .ولكن هذا الموقف من الفلسفة القديمة كان لايمكن أن يدوم ويستمر ، بعد أن وجدت الكنيسة نفسها في حاجة الى دعائم فلسفية تدافع بها عن كيانها ضد خصومها ، فاعتمدوا على آراء أفلاطون وارسطو لإثبات آرائهم بوجود الله . وسرعان ما تم تقبل مؤلفات ارسطو واصبحت حجر الزاوية في الفلسفة الرومانية الكاثوليكية ، وقد قام بهذا الامر معلمون من جماعات الرهبان وبخاصة (توماس الاكويني) . و بإختصار فإن التوماوية إذا ما نظر إليها من منظور الفكر الفلسفي ، فانها لن تكون شيئاً آخر سوى المذهب الأرسطوي مصححاً بطريقة عقلية من فلسفة توما الأكويني عن العقل والايمان ، إنه من الممكن التوافق والتناسق بين العقل والطريقة العلمية وبين الدين والايمان، وفيما يخص فلسفته عن الدولة و نظام الحكم والمجتمعات ،فالدولة والمجتمعات ، حسب هذه النظرة سابقة للفرد . والإنسان بحكم الطبيعة يحيا في المتحد الأوسع من العائلة تحت حكم مشترك.

Abstract:

The middle age Christian thought was characterized by the separation between the Emperor's temporal power and the Pope's divine authority. When it emerged, Christianity viewed the Greek philosophy with distrust and suspicions. This stance on the ancient philosophy, however, would not last as the Church found itself to be increasingly in need of philosophical ideas (bases) in order to defend its own existence in the face of its opponents. Hence, Christian thinkers begun to rely on the ideas of Greek philosophers, such as Plato and Aristotle, in order to prove their thoughts that were based on the existence of God. As a result, the writings of Aristotle were accepted and became the corner stone of the Roman-Catholic philosophy.This was carried out by teachers from the groups of monks,particularly by Saint Thomas Aquinas. Viewed from a philosophical point of view,Thomas's thoughts are but Aristotelian faith amended through reasoning. According to Thomas Aquinas's philosophy on reason and faith, it is possible to have compatibility and consistency between reason and scientific method as well as between religion and faith. As for his philosophy on the state, the system of government, and societies, Aquinas argued that states and societies preceded the individual. Furthermore, he proposed that humans, by the rule of nature, tend to live in a broader unity than the family and under a common rule.